أسباب المغفرة

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢٠٠٩/٩/٤م

ها نحن نتوسط هذا الشهر المبارك، شهرَ الكرم، وشهرَ العطايا، وشهرَ الإحسان، وشهرَ الرحمة، وشهرَ المغفرة، وشهرَ العتق من النار...

وفي أوائل شهر رمضان كنا نجول في معاني الرحمة وفي أسبابها ونتائجها، إذ أولُ رمضان – كما أخبر الحبيب صلى الله عليه وسلم – رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار، والظرف الزمانيّ يسوقنا من الحديث عن الرحمة إلى الحديث عن المغفرة، وحينما نتحدث عن الرحمة والمغفرة فإن هذا لا يعني الانفصال بينهما، فالرحمة والمغفرة ذُكرَتا معًا كثيرًا في كتاب الله تبارك وتعالى.

والمولى سبحانه وتعالى يَتقرَّب إلينا أكثر مما نَتقرَّب إليه، ويحبّ توبتنا ورجوعنا إليه، ويحبّ أن يغفر لنا.

أما تذكرون ذلك الحديث الذي نطقت به شفتا أكرم خلق الله محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: (كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ أَبَى)؟

فالرحمة والمغفرة تنهمران وتفيضان، اللهمّ إلا من أبى.

نعم، قرر القرآن الكريم حقيقة دعوةِ الله تبارك وتعالى عبادَه إلى المغفرة بقوله:

{قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِنْ ذُنُوبِكُمْ} [إبراهيم: ١٠]

إنه سبحانه وتعالى المليكُ العظيم، الذي يدعو عبادَه المخلوقين المملوكين ليغفر لهم.

فما أكرمك يا الله!

نحن الضعفاء والمملوكون لك، وأنت تدعونا لتغفر لنا؟!

إنه لأمرٌ مُذهِل يزلزل القلوب التي تعرف عظمة الخالق تبارك وتعالى، والتي تشهد جلال الله.

واقرؤوا قوله سبحانه: {وَاللَّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ} [البقرة: ٢٢١]

وإذنُه لا يكون إلا في طريق الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، ويستطيع الإنسان أن يتعرّف إليه من خلال سيرةِ الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم وحياتِه.

وقال سبحانه: {وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً} [البقرة: ٢٦٨]

وقال أيضًا: {وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ} [آل عمران: ١٣٣]

فكأنه يبسط لنا موائد المغفرة، ثم هو بعد ذلك يقول: سارعوا إليها.

وقال: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ} [الحديد: ٢١]

وهكذا فإن الدعوة إلى المغفرة مفتوحة في كل وقت، لكنها آكدُ في هذا الظرف، ظرفِ الرحمة والمغفرة.

وقلت: إن الرحمة والمغفرة تنهمران إلا عند وجود الموانع التي تمسك بهما، فحينما يمسك الإنسان بالموانع فإنه يقول للمغفرة: لا أريدك.

وموانع المغفرة أربعة:

١- أكل الأموال المُحرَّمة: فإذا اعتاد الإنسان أن يأكل المال الحرام فإن هذا يمنع المغفرة، واقرؤوا قوله تعالى: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ} [الأعراف: ١٦٩] أي: يأكلون المال الحرام ويقولون متمنّين: "سيُغفر لنا"، والأمنية هي الرجاء الذي لا يقترن بعمل، إنما هي رغبة وشهوة تتناقض مع السلوك.

٢- النفاق: أي: حينما يكون ظاهرُ الإنسان إسلاميًّا، ويكون باطنُه ظلمانيًّا مُحارِبًا لله ورسوله، فيكون ظاهرُه برّاقًا بالإقبال على الإسلام، ويكون باطنُه إعراضًا عن الله ورسوله.

واقرؤوا قوله تعالى: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: ٨٠]

ونـــزلت هذه الآيات عندما استغفر النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن أُبيّ بن سلول رأس المنافقين، فبيّن الله سبحانه وتعالى أن النفاق يمنع المغفرة.

فالمصطفى صلى الله عليه وسلم نال رضوان الله تبارك وتعالى بذلك الاستغفار، وأدّى طاعة الله سبحانه، ولكن الله تبارك وتعالى بيّن أن المغفرة لن تصل إلى ذلك المنافق، لأنه محارب لله ورسوله.

٣- الشرك بالله: قال سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: ٤٨]

٤- الرِّدّة عن الإسلام والكفرُ بالله: واقرؤوا قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا} [النساء: ١٣٧]

فإذا تجاوز الإنسان موانع المغفرة فما عليه إلا أن يبحث عن أسبابها التي تقرّبه من المغفرة، وأسبابُ المغفرة مذكورة في كتاب الله تبارك وتعالى، وسوف أذكر لكم منها عشرة:

١- الاستغفار: واقرؤوا قوله تعالى:

{وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا} [النساء: ١١٠]

وقال: {وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ} أي: يا ربنا حُطَّ عنا ذنوبنا، وأزِلْ عنا ذنوبنا، {نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ} [البقر: ٥٨]

وقال سبحانه: {وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ} [الأعراف: ١٦١]

وقال: {وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [البقرة: ١٩٩]

وقال أيضًا: {وَاسْتَغْفِرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا} [النساء: ١٠٦]

وقال: {وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ} [آل عمران: ١٧]

كلُّ هذا إنما هو من الأسباب المقرِّبة للمغفرة، وذلك حينما يُكثر الإنسان من الاستغفار ويغتنم بذلك خصوصية الزمان، ففي وسط شهر رمضان خصوصيةٌ للاستغفار، فأكثروا في وسطه من الاستغفار، فهو ظرف زمانيّ للاستغفار، لاسيما في الأسحار، وعندما توجد خصوصية أخرى تكون الخصوصية مع الخصوصية.

٢- الإيمان: فعندما يتعمّر القلب بالإيمان فإن هذا يكون من أسباب المغفرة، وعندما نتحدث عن الإيمان وأسبابه فإن هذا الحديث هو للإنسان المكلَّف.

فإذا قال الله سبحانه: "**آمِنُوا**" فمعناه: خذوا بالأسباب التي تجعل قلوبكم أكثر إيمانًا وأقرب يقينًا.

قال سبحانه: {الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا} أي: أخذنا بالسبب الأقوى الذي هو الإيمان، {فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران: ١٦]

وقال سبحانه: {إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا} [طه: ٧٣]

وقال: {إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ٥١]

وكلُّ هذه الآيات مؤكّدة لهذا المعنى، وهو أن الإيمان من أسباب المغفرة، بل ومن أعظم أسبابها.

٣- فعل الطاعات: واقرؤوا قوله تعالى: {وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} فأخذوا بسبب من أسباب المغفرة ثم طلبوا تلك المغفرة فقالوا: {غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [البقرة: ٢٨٥] فما طلبوا المغفرة إلا بعد أن سمعوا وأطاعوا، أي بعد فعلهم لطاعة الله تبارك وتعالى.

٤- ترك المخالفات الشرعية: وكما نتحدث عن الفعل نتحدث عن الترك، فالله سبحانه وتعالى كلّفنا بفعلٍ وكلّفنا بترك، والصيام تركٌ كما نعلم، ونتيجةُ التركِ الجزئيّ تركٌ عامّ، قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ} وهذا التركُ الجزئيّ هو من أجل الترك العامّ: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ١٨٣] فالتقوى هي الترك العامّ لكل المخالفات الشرعية.

وأجمَلَ اللهُ سبحانه وتعالى كلَّ الأفعال التي يتقرّب بها الإنسان إلى الله بمصطلح البر، وأجمَلَ كلَّ التروك بمصطلح التقوى، ثم قال: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى} [المائدة: ٢] أي: وتعاونوا على الفعل والترك، حتى تكونوا على الصراط المستقيم الذي أمركم الله تبارك وتعالى به.

فالحديث عن الترك، وأن هذا الترك سببٌ من أسباب المغفرة نقرؤه في قوله تعالى:

{يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ} [الأنفال: ٢٩]

فالتقوى التي هي ترك المخالفات الشرعية سببٌ من أسباب مغفرة الله تبارك وتعالى.

وقال سبحانه: {مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ} أي: التاركون للمنهيات.

{فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ} [محمد: ١٥]

٥- الذكر: لأن ذِكر الله يمحو عن القلب الغفلة، فإذا محيت الغفلة عن القلب، وكان الإنسان في حضرة ربه حاضرَ القلب، و لم يكن قلبه غافلاً عن جلال الله وهيبته، فإن هذا الحضورَ المعبَّرَ عنه بالذكر هو سبب من أسباب المغفرة.

واقرؤوا قوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ} [آل عمران: ١٣٥]

فإنهم بعد وقوعهم في التلطُّخ والتلوّث بالمخالفات، اعترى قلوبهم ما يعتري قلوب الصالحين من الخشية والهيبة لجلال الله تبارك وتعالى وعظمتِه، وعند ذلك طلبوا من الله المغفرة فغفر لهم.

٦- اتباع القرآن، والخشية التي تَنتج عن الانفعال لهذا القرآن:

واقرؤوا قوله تبارك وتعالى: {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ} أي اتبع القرآن، {وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ} وهذا هو الانفعال لما قرأ في الكتاب المنير، {فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ} [يس: ١١]

واقرؤوا قوله تبارك وتعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [الملك: ١٢]

٧- سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم:

فالمؤمن لا يستطيع الانفكاك في حال من الأحوال عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فإننا ونحن نصلّي في الفريضة خمس مرات نقول: السلام عليك أيها النبي، بصيغة المخاطَب.

فلا يقول أحد: (السلام على النبي)، أو (السلام عليه)، إنما يخاطبه بكاف الخطاب: (السلام عليك أيها النبي)، وهكذا تكون صلة المؤمن مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهكذا يستحضر النورانية المحمدية في كل أحواله، وهذا الاستحضار للنورانية المحمّدية هو من أسباب المغفرة، وإنما هو مُسرِّعٌ ومُقرِّب، لأنه مع الوسيلة العظمى سيدِنا محمد صلى الله عليه وسلم.

قال ربنا تبارك وتعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا} [النساء: ٦٤]

ولا يعني: "**جَآؤُوكَ**" أي: إلى المدينة المنورة كما يفهم بعض الناس، إنما هي معنىً مستمر لا ينفك عن كل مؤمن في كل مكان وزمان، فقد انتقل النبي صلى الله عليه وسلم ونورُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عامّ.

وأعجَبُ من الذين يحصرون أنفسهم في بقعةٍ ويتوهمون أن نور رسول الله صلى الله عليه وسلم ينحصر فيها، والنصُّ القرآنيّ صريحٌ يقول الله سبحانه وتعالى فيه: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧]

والرحمة معنىً نورانيٌّ عامّ، فإذا كانت الرحمة النورانية – وهي محمد صلى الله عليه وسلم – تعمُّ العالَم كله، فكيف تنحصر هذه الرحمة في بقعة من الأرض؟! هذا لا يكون أبدًا.

والله سبحانه قال: {قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ} [المائدة: ١٥] وأهل التفسير من العلماء على أن معنى النور هنا: محمدٌ صلى الله عليه وسلم.

وقال الله سبحانه لحبيبه صلى الله عليه وسلم:

{فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} {محمد: ١٩]

وقال سبحانه وتعالى وهو يدل أهل الإيمان على مقام الأدب مع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم:

{إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ}

[الحجرات: ٣] إذًا: أهل الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما يكونون في الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، يكون هذا من أسباب المغفرة لهم.

وقال سبحانه وتعالى وهو يدلُّنا على سبب المغفرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي} أي: فلتكن أنظارُكم معلّقةً بي ولترقُب حركاتي وسكناتي، ولتكن قلوبُكم ملاحظة لأحوالي وأخلاقي، وعندها: {يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [آل عمران: ٣١] لأن هذا المؤمن الذي تعلّق نظر بصره وبصيرته بمحمد صلى الله عليه وسلم فإنه يعرّض نفسه لسبب المغفرة.

وقال ربنا سبحانه وتعالى: {يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ} وداعي الله هو سيدُنا محمد صلى الله عليه وسلم، {وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [الأحقاف: ٣١]

٨- أن يغفر بعضنا لبعض: فإذا سَرَت هذه الأخلاق فينا يكون ذلك سببًا من الأسباب المقربة لنا إلى المغفرة.

واقرؤوا قوله سبحانه: {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [النور: ٢٢]

أي بِصَفْحِكم.

فإذا رأى ربنا تبارك وتعالى أهل الإيمان يغفر بعضهم لبعض، ويصفح بعضهم عن بعض، ويعفو بعضهم عن بعض... فإن هذا من أسباب المغفرة.

لن تكون الأكرم من ربك، فإذا غفرتَ فإنه سبحانه يغفر لك، وإذا عفوت فإنه تبارك وتعالى يعفو عنك، وإذا صفحت فإنه سبحانه وتعالى يصفح عنك..

واقرؤوا قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ} [الشورى: ٣٧]

واقرؤوا قوله تعالى أيضًا: {وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [التغابن: ١٤]

٩- الإنفاق:

أَخرِج ما في الجيب أيها المؤمن، يأتِك ما في الغيب..

إياك أن تكون ممن يمسك الأموال..

أنفقْ يُنفَقْ عليك..

واقرؤوا في الكتاب المنير قوله تعالى:

{إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا} أي: بالإنفاق في سبيل الله تبارك وتعالى، {يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ} [التغابن: ١٧]

١٠- أن تُشرِك والديك والمؤمنين بالدعاء وأنت تستغفر في حضرة الله:

فلا تجعل استغفارك فرديًّا، بل أشرِك في دعائك أهل الإيمان.

واقرؤوا قوله تعالى: {رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ} [ابراهيم: ٤١]

فأنت بهذا الدعاء تنال المغفرة.

ليس من شأنك أن يُغفرَ لهما أو لا يُغفر، إنما شأنك أن تطلب من الله سبحانه أن يغفر لهما ويصفح عنهما، فإنك بهذا الدعاء تنال المغفرة أنت، أما النتائج فإنها لله سبحانه وتعالى، وإنما هذا الإشراك في الدعاء يدل على الخروج عن حس الأنانية وعن الفردية التي لا تتناسب مع مقام الإيمان.

وجَمَع كل ما تقدّم من أسباب المغفرة بقوله تبارك وتعالى:

{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} [المائدة: ٩]

اللهم إنا نسألك في هذه الساعة المباركة أن تجعلنا ممن تغفر لهم وترحمهم.

اللهم إنا نسألك أن تجعلنا في وسط شهر رمضان ممن غَفَرت لهم، ورَحِمتَهم، وأكرمتَهم، ووهبتَهم ما تهبه لأحبابك وأوليائك وأصفيائك.

واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.